السلوكيات الجديدة لاختصاصى المعلومات فى العالم الافتراضى

د. أحمد الكسيبى

المعهد الأعلى للتوثيق / تونس

١- المقدمة :

إن الرؤى التى تشيعها التوجهات التقنوية فى أدبيات علوم المكتبات والمعلومات تعتنى بمستجدات التقانات الحديثة تبقى تفسيراتها ومواقفها فى حدود عادات التقليد للغرب تلك التى تتمثل فى الإحالة آليا إلى مواقع ورؤى منبتة عن واقع مرافق المعلومات، ولهذا تتغلب السلوكات دون ان يصاحبها تغيير فى العقليات وفى الأنساق الثقافية والاجتماعية(١) حيث يعم التهافت على استيراد منتجات مستحدثة من البلدان المتقدمة ودحر المنتجات والموارد المحلية ، تلك الممارسات السائدة التى تفشت فى بلادنا على كل الأصعدة ، تتغلغل فى أصولها وتعيق كل محاولات الإنتاج والإبداع المحليين . إن الصعوبات الحقيقية للبلاد العربية للانتقالات من مجتمعات رعوية وزراعية إلى مجتمعات ما بعد الصناعة ، ومجتمعات المعرفة والمعلومات ليست بالأساس تقنية بقدر ما هى صعوبات ثقافية واجتماعية مثل : سلوكيات وعقليات تقليدية، وصعوبة التحكم فى التقانات من قبل المهنيين ، وصعوبة تعريف الوظائف الجديدة ومواصفاتها وعدم تصميم وإنجاز استراتيجية التطور / الانقطاع لتجاوز النماذج التقليدية . إن الرؤى التقنوية السائدة لم تدرس المشاكل التى يتخبط فيها اختصاصى المعلومات على كل المستويات، ولم تقدم حلول عملية لأصحاب القرار للتقليل من الفجوة التكنولوجية، ولم تقنعهم بأن نقل التقانات لايحصل إلا بترسيخ سلوكيات جديدة لتطوير منعجات ومحتويات ملائمة تستدعى تأصيلها فى ظروفها السوسيوثقافية .

وتعتبر هذه النظم(٢) بلا شك أكبر خطر يهدد مهن الوسطاء والناقلين الذين يضطلعون بوظائف توصيل المعلومات فهى قادمة على التشكيك فى جدوى خدماتهم وهى تطرح رهانات ومشاكل أخلاقية متعددة

---

(١) إعتماد محمد علام، ومحمود فهمى الكردى، أثر الثقافة فى البنية الاجتماعية بمجتمع عربى دراسة حالة لدولة قطر القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣ ، ٢٠٥ ص.

(٢) .(La désynchronisation)

(انعدام المسئولية والأمن ، وعدم احترام الخصوصية وحقوق التأليف والنشر) وتتطلب لمواجهتها رؤى وسلوكيات تقطع مع عادات يغلب عليها التقاعس والاسترخاء .

إن التطرق للعوالم الفرضية Virtual World(١) التى ستكون فى الألفية القادمة حسب تقديرات المنظرين الاستشراقيين.(٢) مؤثرة وفاعلة اقتصادياً واجتماعياً سوف تبعدنا أكثر عن الواقع وتصيبنا بالاغتراب فهى مستقلة عن الزمان والمكان والمادة وتقحم فى مساحات فوقية موازية للعالم الواقعى وتفرض منطقا غير مألوف ومضامين مجردة تتصف بثلاث خصائص : اللامادية (La dématerialisation) واللاتموقع (La délocalisation) واللاتزامن.

سنكتفى فى هذا المبحث بإلقاء الضوء على جانب يتعلق بتغيير السلوكات إبراز الممارسات لتأهيل اختصاصى المعلومات و المكتبى لتبنى مواقف ورؤى وعلاقات جديدة تدعم المكتبة لتكون جزءاً ضروريا من البنية التحتية للمعلومات وتصل إلى مستوى خدمة المستفيدين فى العوالم الرمزية .

٢- السلوكات الجديدة:

إن كل من يروم المشاركة فى هذه العوالم الفرضية عليه ترك ممارسات التقليد والاسترخاء التى لم تعد تتسق مع مجتمعات ما بعد الصناعة ، أى مجتمعات المعلومات والمعرفة . يرتكز هذا العالم الفرضى الأخذ فى البروز على جملة من القيم الأساسية ، وعلى أنماط جديدة للتفكير و أنماط للعمل و الإنتاج والاستهلاك التى تفرض نوعيات حديثة من الممارسات والمهارات يصعب فى الحقيقة تحديدها لأنها بصدد التشكل ، والتى من خلال مستجدات العلوم الإنسانية سنحاول اختزالها فى ثلاثة معالم ، تتبين فى ما يعبر عنها ب «مثلث بورديوا » (٣) ، تبدأ حروفها باللاتينية بحرف الأى ٣×١ : (٤) (Imagination / Immersion / Interaction) هذه الممارسات الحديثة: التفاعل والانغماس والخيال والإبداع ، التى تمثل العناصر الثلاثة لهذا المبحث والتى نعتبرها الأكثر دلالة على التحولات فى الممارسات والمهارات المكتبية المرتقبة.

(١) عالم مصطنع مختلط بعرض بيانات فى فضاء مركب يمكن لمستخدم التجول فيه من خلال إصدار الأوامر للحواسيب ويفرض لهذا العالم متغيرات منطقية ويعوض بعض الأحيان الواقع كما هو الشأن فى برامج المحاكات Simulation . تتعدد المصطلحات المقابلة Virtual world العالم الوهمى العالم الخيالى أو حسب صياغة نبيل على العالم الخائلى.

(٢) حسب جاك أتالى مستشار رئيس فرنسا السابق فى سنة ٢٠٥٠ يتفوق الناتج الداهلى الخام PIB المتأتى من المعاملات الإلكترونية (التجارة، الصناعة ، الخدمات الإلكترونية) الجارية فى الشبكات على الناتج الخام الدولى للأنشطة المادية، وهكذا يفوت ابتداء من أول عشرية فى القرن الجديد المتسرب عبر العوالم الفرضية الناتج الداخلى الخام لدولة فرنسا :

(٣) كريكورى بورديوا أستاذ جامعة روجارس الدارس لبرمجيات تفاعلات الإنسان الأله.

(4) Jolivat, Bermard. Laréalité virtulle> Paris:PUF, 1995, p7

١/٢ - التفاعل :

إن المكتبات الرقمية Digital Libraries التى شاع استخدامها فى عقد التسعينيات من خلال بعض التجارب الريادية فى البلاد المتقدمة ، تأخذ شكل شبكات إلكترونية تتألف من أطراف مختلفة فاعلة ضمن علاقات تعاونية منتظمة ومقننة ، لتتفاعل مع جملة تحولات البيئة العلمية والتقنية من خلال الإمكانات الاتصالية ، ينتج عنها اندماج الخدمات لمزيد التركيز على تلبية حاجيات المستفيدين لتقديم وعرض ميسر للمعلومات وذلك لتحقيق ((القيمة المضافة)) وبالتالى لتحقيق أغراض اقتصادية وتجارية تعتبر من أهم عوامل الربح وجنى الفوائد فى الاقتصاد الحديث . والمتأمل فى مشاريع وتجارب مستخدمة لمصطلح المكتبات الرقمية DL والتى تعمل على إنشاء مستودعات للمعلومات، يرى أن المكتبة الرقمية تحتاج إلى الربط ما بين مجاميع المكتبات وخدمات المعلومات ، ففى الولايات المتحدة دعمت العديد من المؤسسات الفاعلة فى مجالات البحوث والتطوير الحكومية (المؤسسة الوطنية للعلوم National Science Foundation NSF وكالة الفضاء النازا NASA ، والمشروع المتقدم للبحوث الأربا Advanced Research Project ARPA التابع لوزارة الدفاع تلك الهيئة التى أنشأت الإنترنت) مشروعا ضخما حول المكتبة الرقمية يقوم بربط أرصدة مرقمنة لست جامعات أمريكية. وتساير أوروبا نفس التوجه بمشروع سمته الذاكرة ((ميموريا)) يشترك فيه عدة متدخلين منهم المكتبة الوطنية الفرنسية وأكسفورد تاكست أرشيف ومعهد تولون للأبحاث العلمية مع مؤسسات مختصة فى المعلوماتية . لقد أدركت البلدان المتقدمة ما للمكتبات من قيمة اقتصادية ويتبين ذلك بوضوح من خلال اجتماع البلدان السبعة الأكثر تصنيعا الذى أقيم ببروكسل فى فبراير فيفرى ١٩٩٥ والذى نادى بإنشاء ((مجتمع المعلومات)) . وباعتبار أن المكتبات أهم روافد هذا المجتمع المرتقب، أصدر هذا اللقاء توصية اعتبرت رقمنتها ضمن المشاريع النموذجية وقررت ((تكثيف الربط الرقمى بين مختلف المكتبات لتوزيع الزاد المعرفى على أوسع الحدود)) . وهو ما يعنى التوجه نحو حفظ الانتاج الفكرى برمته على أوعية إلكترونية (سواء فى قطاعات نوعية معينة من الأوعية ، أو قطاعات موضوعية ، أو قطاعات زمنية) . ولا غرو أن تتصدر مرافق المعلومات هذه المكانة فى المحافل الدولية فهى تعبر عن قناعات بدورها الحافز للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية ومن خلال المشروعات العملاقة للمكتبات الرقمية، والذى ارتبط فى ذلك الوقت بالمكتبات الوطنية للعديد من الدول المتقدمة يتجلى من مواقعها المذكورة فى الهامش[١]، المتأمل فى هذه المواقع يصطدم بحجم التغييرات والتحديات إزاء تقانات المعلومات والاتصال التى يمكن المكتبات من تدعيم استراتيجيتها لتنمية أدائها.

---

(١) Library of Congress (http://lcweb loc.gov/homipage)

* British Library (http://www/bl.uk)
* Bibliotéque Nationale de France (http://www.bnf.fr/)
* Bibliotéque Nationale du canada (http://www,nlc.ca/fhome.htm)

تعتبر التقانات الجديدة للمعلومات والاتصالات أهم عامل للتحولات التى يشهده العالم وبدأت العديد من خصائص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الجديدة تتبلور ، وتفيد بعض مؤشراتها أنها تعد لنموذج جديد من المجتمعات الإنسانية تتجلى من خلال ما عبر عنه بالقرية الكونية والعولمة التى يتصف أبعادها بالديناميكية وسرعة الحركة (مثل الأبعاد الاقتصادية التى تتسم بنمو التجارة الدولية وكثرة التدفقات المالية المتصاعدة يقوم بعده الثقافى على الذكاء الجماعى وإنتاج المعنى إنطلاقا من علاقات وصلات اجتماعية جديدة أحدثها و كثفها ثم وسعها تبادل المعلومات وتناقل المعارف وتقاسم العلم ..) ويقتضى هذا السياق من اخصائى المعلومات ضرورة التفاعل الإيجابى فيما يتعلق بالاتصال بالخارج واستحالة الاكتفاء الذاتى بالمصادر الداخلية ، تقود مرافق المعلومات إلى مضاعفة المبادلات والانخراط فى الشبكات لكى تتمكن مع تحولات الانفجار الإعلامى المتدفق و المتعدد والمعقد باستمرار والتعامل مع محيط التقلبات لرغبات واحتياجات المستفيدين ، سواء كانت هيئات أو أفراد تصبح المعلومات ضرورة لتوجه التنمية وتوفر مستلزماتها بإتخاذ قرارات سليمة فى كل المستويات، وتتبين عندما يقوم الاختصاصيون بدراسات وأبحاث لنقل التقانات . إن التطوير والإبداع التكنولوجيين لا يتمان أساساً دون وجود شبكة متكاملة من المعلومات تسهم فى تزويد الجهود القائمة لتوفير الصحيح من البيانات والسليم من المعلومات بحيث تتم هذه العملية بشكل تراكمى يسفر عن حدوث تغيير حقيقى فى هياكل المجتمع وأبنيته)) (١).

و(لا يستطيع أحد أن ينكر الصلة الوثيقة بين التنمية التى يمكن اختزالها فى نقل التكنولوجيا (كعملية) وشبكات المعلومات (كنسق) بل إن التطور الذى يلاحق أحدهما ينعكس بالضرورة على الأخر يؤثر فيه ويتأثر به)) صحيح أن الدول العربية ادركت أهمية موضوع ((المعلومات)) ، منذ وقت مبكر ولذا أولت منظمات العمل العربى المشترك لها مكانة هامة ، وعلى سبيل المثال أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العديد من الإستراتيجيات تنوه بما للمعلومات من أهمية ، وأهمها وأحدثها استراتيجية التوثيق والمعلومات (٢).

إلا أن الواقع يدل على أن هذه الهيئات القومية لم تنجح فى إقناع حكومات الأقطار للعمل بالأولويات نقل المعلومات ، ولم تقدر على تحديد متطلبات القطاعات الاقتصادية والمنشأت الصناعية من المعلومات الاستراتيجية . فشلت مشاريع القومية لتركيز بنى ومواقع ومراصد لمعلومات ومحاولات للمشابكة بينها وتعجز لى حد الان على تركيز قواعد للمعلومات (مشروع الشبكة العربية للمعلومات أريس نات ARISNET ،

---

(١) اعتماد محمد علام ، ومحمود فهمى الكردى، المصدر السابق، ص ٧١ .

(٢) استراتيجية التوثيق والمعلومات وخطط العمل المستقبلى/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التوثيق .- تونس المنظمة ، ١٩٩٨ - ٣٠٤ ص.

ومغرب نات Maghrebnet وجولف نات .(Gulfnet) والعجز فى هذا المستوى يعود أساسا لضمور التقييم التكنولوجى Technology assesment، بينما يعتبر هذا التقييم أحد الأسس الضرورية لدعم وضع السياسات والاستراتيجيات وتمحيص البدائل التكنولوجية المتاحة مع ضرورة تجاوز الجوانب الفنية (التكنيكية) إلى ما عداها من إعتبارات إجتماعية وثقافية .

وهكذا يتم نقل تقانات الاتصال والمعلومات فى المجتمعات العربية أساسا عن طريق إقتناء أحدث الأجهزة بصورة سريعة وعشوائية . ومعروف أن إقامة أهم مشاريع النظم المعلوماتية فى البلدان العربية تعتمد على التقانات المستوردة ، وكأن عملية نقل التقانات تتم بالشراء وليست بنقل المعلومات وتشجيع البحث العلمى بابتكار وتطوير منتجات ملائمة. ويتم اقتناء التقانات الحديثة وإستردادها فى أغلب الأحيان من غير توصية من ذوى الاختصاص والعلماء والباحثين وأحيانا كثيرة دون استشارتهم وحتى سماع رأيهم بالبدائل المطروحة. وتقبل بعض البلاد العربية الغنية فى مجالات نقل التقانات على الحلول السهلة فتعتمد على بيوت حبرة أجنبية وعلى تقانات أجنبية وفى أغلب الأحيان تأتى هذه التقانة من بلد واحد ولا يتدخل الاختصاصى الوطنى إلا فى مراحل التركيب والتشغيل . لذا يؤدى نقل التقانة بالطريقة العشوائية إلى :

إغراق السوق المحلية بالسلع والخدمات الأجنبية ، ونمو الظاهرة الاستهلاكية إلى حدود تتجاوز كثيرا قدرة الاقتصاد الوطنى وقدرات الإنتاج المحلية (مشكلة المديونية).

اتباع سياسة المشروع الجاهز ((تسليم المفتاح باليد وإقامة النشآت المعلوماتية على أساس أحدث التكنولوجيا وإهمال التكنولوجيا المحلية واغتراب هذه المشروعات وتبعيتها للشركات العابرة للقوميات .

سياسة استيراد الكفاءات الأجنبية مقابل التفريط بالكفاءات الوطنية القومية أو عدم استغلالها على الوجه الأمثل ...

وهناك مؤشرات يمكن أن نستدل بواسطتها على صدق ما قلنا ، حيث نجد أن ما أنفقته الدول العربية على استيراد التكنولوجيا أكثر بأضعاف خلال الربع قرن الأخير مما أنفقته على إنشاء مرافق للمعلومات تعتنى بمحتويات هذه النظم وعلى تدريب المختصين ، وعلى سبيل المثال أنفقت دول الخليج ومصر ٣٥٠ مليون دولار على تكنولوجيا المعلومات فقط وفق تقديرات عام ١٩٩٤ منها ١٥٨ مليون دولار فى السعودية ١٢٦ فى الإمارات...[١] وقد تعتبر منطقة الخليج العربى من أكثر مناطق العالم نموا فى حجم الطلب على الأجهزة

(١)عبد المنعم يوسف بلال . صناعة تكنولوجيا المعلومات؛ تراسل البيانات بين الدولة العربية. تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٩٦ . ١٣٥ .

* أشرف صالح. الطريق السريع للمعلومات / إدارة التوثيق والمعلومات. تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٩٩، ص١٥٥.

الإعلامية والمعلوماتية . ويقدر النمو فى الطلب على أجهزة الحواسيب بـ ١٢ إلى ١٥ بالمائة فى مقابل نمو لا يتجاوز ٤ بالمائة فى الأسواق الأوروبية والأمريكية (١) . وتعممت ظاهرة الاستيراد الواسع المدى لهذه المنجزات بصورة خلقت من هذه البلدان سوقا رائجة لمنتجات البلدان المتقدمة . وهكذا نشهد حمى تغيير الموديلات والتكنيك وتسعى إلى تصريفها الشركات العابرة للقومية فى بلداننا، وهذه الصورة التى يكثر فيها إستجلاب تقانات الاتصال والحواسيب فى البلدان العربية لاتخضع لتقييم إمكاناتها ولإستعاب قدراتها تؤدى إلى هدر الموارد المالية دون إستعمال على الوجه الأمثل وإستغلال لإمكاناتها . وأفضل مثال على ذلك المؤسسات والجهات الكثيرة التى امتلكت حواسيب لا تحتاج إلى أكثر من ٢٠٪ من طاقتها لأن قدرة الحاسبات التى ادخلت إلى الخدمة أكبر بكثير من الحاجة الفعلية (٢) ...

إن التهافت على استيراد منتجات البلدان المتقدمة من تكنولوجيا الاتصال والأجهزة المعلوماتية تؤدى إلى قلة الاستثمارات الموجهة لمرافق المعلومات لتطوير المحتويات لهذه النظم حسب المتطلبات الثقافية الخصوصية .وأصبحت الثقافة الاستهلاكية منذ مطلع الثمانينيات ميزة من مميزات المجتمعات العربية الغنية التى تتغلغل فى أوصالها دون أن يصاحبها تغيير فى العقليات وفى الأنساق الاجتماعية (٣) .

إن أنماط التقانة الوافدة إلى المجتمع ، دون ما حاجة ملحة لاستيعابها ، تسفر عن اغترابها عن بنية المجتمع وانعزالها فى بيئة خاصة بها ، وعدم شيوع تأثيراتها فى مستوى الجمهور العريض لتحقيق تنمية ثقافية علمية . إن التقانة المغتربة عن واقع المجتمعات تؤدى أيضا إلى تناقضات واتجاهات معاكسة حتى إنه يخشى أن يصل التناقض بين الأقطار وبين الفئات فى المجتمعات العربية إلى عواقب وخيمة ، فمن جهة تتجه مجموعات بكاملها إلى الانزلاق فى تيارات المستهلكين السلبيين الذين يغمرهم سيل من الخدمات لا تستجيب لحاجتهم، وتستفحل السلوكات الاستهلاكية وأمراضها من حب التظاهر والنرجسية المطلقة ، من جهة أخرى تنحدر بعض المجموعات الفقيرة والمعوزة من جراء الأمية (٤) وعدم استيعاب المعارف فى مستنقعات التهميش وهى تبتعد يوما بعد يوم عن معالم الحضارة (٥) .

---

(١) صالح، أشرف . نفس المصدر.

(٢) الشكر، ياسين. دور الدول والأفراد فى تنمية الصناعات الإعلامية فى : الصناعات الإعلامية والإتصالية فى الوطن العربى / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس : الألكسو ، ١٩٩٣ ، ص ٤٦ .

(٣) علام ، اعتماد محمد، الكردى ، محمود فهمى ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٤) بالرغم من إتساع حركة التعليم فى العقود الأخيرة فلا زالت نسة الأمية عالية مما يؤثر فى حركة التعليم، ونوعية اختيار وسيلة الإعلام والمعلومات المناسبة.

(٥) ولن نعيد تلاوة مظاهر الانحدار التى تبثها يوميا وسائل الإعلام الأخبار من خلال المجاعات والكوارث فى الوطن العربى التى تدل عن وجود ما لا يقل عن ١٠ ملايين عربيى جائع فى إرتيريا والصومال وفى السودان... لأنها تتبين فى حقائق ووقائع تثار بشكل يؤسف له يسبب القرف والسخط عن الجعز العربى والإسلامى لمحاصره هذه الظواهر.

فنى الوقت الذى تتوفر فيه بفضل التكنولوجيات الجديدة للاتصال والمعلومات إمكانات حقيقية للمبادلات والتلاقح الحضارى تبقى المجتمعات العربية متشبثة بطبيعتها التقليدية التى تعوق محاولات الإبداع و التجديد وتعرقل تهيئة الظروف المواتية لتنمية قدراتها الذاتية .

فالبنية المجتمعية بالدول العربية لا تتكيف مع نسق التحولات التكنولوجية، ويرجع ذلك إلى عزلة المؤسسات والمراكز التى تضلع بوظيفة إدراج وتوطين وتطوير نظم المعلومات عن محيطها العام، وعدم إندماجها داخل النسيج الاقتصادى والاجتماعى، وسيطرة القرار السياسى والسلط على مسارها والتدخل فى طريقة عملها ولهذا تبتعد هذه الهيئات عن اهدافها المسطرة (١) . إن غياب مجتمع مدنى فاعل ومسئول فى البلدان العربية، وضعف ونقص عدد الجمعيات والنقابات المهنية الممثلة والقادرة على اقتراح البدائل (وعلى كل اخصتاصى للمعلومات أن يتساءل كم عدد الجمعيات لمهن المعلومات فى بلاده ؟ وكم عدد الجمعيات لمستعملى نظم المعلومات؟...)

أدى إلى مشاركة ضئيلة للمجتمع فى مشروعات صياغة النظم المعرفية وتطويرها. والمشاركة تقتصر على فئة محدودة من التقنين والإداريين أصحاب القرار الحريصين على الإستفادة من اقتناء التقانات فى عملهم وفى مصالحهم العينية، تظهر فى بعض الأحيان فيما يجنون من عائدات وأرباح عند مشاركتهم فى الصفقات العمومية وإبرام العقود (٢) .

إن النظرة المستقبلية تدعو لإعادة إحياء المشاريع القومية، بأدوات اللحاق بركب حضارة المعرفة وتحويل المكتبة العربية التقليدية إلى مكتبة إلكترونية، بتوصيل عدة مكتبات سواء على المستوى القطرى أو على المستوى القومى وهذا الأمل يمكن أن يتحقق بتقانات المشابكة الحديثة، لأن جوهرها يتعلق بمهمات التنسيق وهى مهمة أيسر بكثير مما كانت عليه فى عهد ليس ببعيد . إن انخفاض تكلفة تقانات الشبكات الحاسوبية وزيادة سرعتها وجودة خدماتها ستزيد لامحالة فى ربط العرب بين بعضهم ، فكما تجاوزت القنوات الفضائية الحدود الإعلامية الضيقة ستتجاوز تقانات الشبكات صعوبة انتقال وتداول البيانات والمعلومات وستشتمل فى نطاقها المبادىء المؤسسة للتفكير والإنجاز فى عصر العولمة والمعلوماته، مبادىء تقوم على التفاعلية والإبداعية المتبادلة التى تعتمد ممارسات : التنشيط والتعاضد والاخصاب والتلاقح .

---

(١) النعيمى ، طه تايه، تقانه المعلومات الحديثة ودورها فى دعم البحث العلمى .- بغداد : إتحاد مجالس البحث العلمى العربية، ١٩٩٨ .
(٢) مثال الرشاوى الى تدفنها الشركات العبارة للقوميات مقابل دخولها الأسواق أو فوزها بصفقات عموميه تفوق ميزانيات بعض الدول وفى العالم الثالث تصل هذه الرشاوى ما يقترب من تريليون دولار فى شوق المشتريات.

وبقدر ما تتطلب ممارسات التفاعل ثقافة عامة ودراية بمجريات الأمور على الساحة الدولية للمساهمة فى وضع أنظمة ملاءمة مع البيئة المحيطة ، بقدر ما يفترض الانغماس فى مهارات متخصصة للقيام بالغوص أو الإبحار .

٢-٢ الانغماس :

وكلما تعلق الأمر بفضاءات شاسعة مثل الإنترنت لايمكن الإلمام بها إلماما شاملا إلا بسلوكيات الإنغماس، التى تتلخص فى قدرات ومهارات التوجه وعدم الضياع والارهاق المعرفى . إن بروز المكتبات الرقمية يتزامن مع التطور الكبير لشبكة العنكبوتية www ، (الواب) ، ولم يكن بيرنيرز لى[(١)] هذا الباحث الفيزيائى يدرك عندما اكتشفها أن هذه الشبكة ستصبح أهم قنوات توصيل المعارف والعلوم، وتصبح اللغز المحير للذى يريد التوصل للمعلومة . ففى ظل الانتشار الهائل للواب والإقبال المتزايد من جانب المستخدميين له يصبح التيهان والضياع هما السمتان البارزتان لخدمات المعلومات . وذلك لما فى هذه الفضاءات من موارد خيالية لايمكن تقديرها بدقة (مئات المليارات من الوثائق)[(٢)] ففى سياق تتضاعف فيه موارد الإنترنت لموارد سطحية Surface web وموارد عميقة Deep web تفوتها غنا مئات المرات ، وحتى الواب الذى يضم أغلب المصادر والقنوات للاتصال ولتبليغ المعلومات ليس بالمورد الوحيد حيث توجد مصادر للمعلومات العلمية والتقنية على الشبكة خارجه ويرجع ذلك لحداثة عمره بالمقارنة مع خدمات التى سبقتها مثل تلنات Telnet ، والموزييك Mosaic وبرتوكلات نقل السجلات FTP ، تصبح هذه الأدوات التى تضع تحت تصرف مستخدمى الإنترنت قواعد البيانات وخدمات للمعلومات وبالإضافة إلى العدد المهول من الوثائق مصدراً الضياع .

أن نخضع لآليات إنتاج الوهم (ونشر السراب) عبر وسائل الإعلام والإنترنت ، سواء اتخذت شكلًا أيديولوجيات أو أتبعت مسلكا إشهاريا ونبقى نحلق فى هذه الفضاءات بعيدا عن كل المراسى ، بينما من مميزات أخصائى المعلومات ، عند قيامه بمهام إيصال المعلومات والمعرفة أن لايتيه فى هذه الفضاءات مهما كثرت العوالم الرمزية ودوره يتمثل أساساً فى الدعوة للعودة إلى الواقع وتحديد المصطلحات وإضفاء المعانى الملائمة . إن هذه الفضاءات الموزعة على مواقع مختلفة تتطلب تطور الممارسات والأساليب والأجهزة . إن

---

(١) إن تطوير الشبكة العنكبوتية قد بدأ فى معهد سيرن CERN الخاص بالعلوم الفيزيائية على يد تيم بيرنرز Tim Berners Lee .

(*) The World Wide web. Datamation. Jan 5/1995.

(٢) S. Iawrence & Lee Giles. Searching The Web. Im: Science (April 1998).

أن نخضع لآليات إنتاج الوهم (ونشر السراب) عبر وسائل الإعلام والإنترنت، سواء اتخذت شكلًا أيديولوجيات أو أتبعت مسلكا إشهاريا ونبقى نحلق فى هذه الفضاءات بعيدا عن كل المراسى، بينما من مميزات أخصائى المعلومات، عند قيامه بمهام إيصال المعلومات والمعرفة أن لا يتيه فى هذه الفضاءات مهما كثرت العوالم الرمزية ودوره يتمثل أساسًا فى الدعوة للعودة إلى الواقع وتحديد المصطلحات وإضفاء المعانى الملائمة. إن هذه الفضاءات الموزعة على مواقع مختلفة تتطلب تطور الممارسات والأساليب والأجهزة. إن فهم متطلبات ولوج فضاءات المعارف المترامية الأطراف ليس بالغريب عن حضارتنا تلك التى سبقت الحضارات الغربية فى تحديد نوعية السلوكيات والصفات التى لابد من التحلى بها عند الدخول فى فضاءات العلوم والمعارف الفسيحة والصعبة المراس. ويتبين هذا بوضوح لما استخدم«اخصتاصى المعلومات»القدامى لمفاهيم الإبحار والملاحة[1] عند تنظيم البيانات اللغوية فى مؤلفات وقواعد تنجى من التشتت ومن ضياع المعنى بينما لم يتفطن الغرب لهذه المفاهيم إلا فى السنوات الأخيرة حينما فرضت العوالم الرمزية إتقان تقنيات الملاحة Navigation sur le NET فى الفضاءات السيبرانية وفنون الإبحار للوصول للمراسى المعرفية ملائمة على الإنترنت وحتى لايضيع الإنسان لابد من التدريب والتأهيل باستعمال أدوات جديدة تعمل كل مؤثراتها على إقناع المشارك بلانقطاع عن الواقع بالغطس فى بيئة التجريبية الجديدة.

تستعمل المكتبات الرقمية لهذا تجهيزات مثل مركز القراءة بمساعدة الحاسوب PLAO poste lecture assisté par ordinateur التجهيزات التى تمكن من خلق فضاءات فرضية بتصدير وإسترداد الملفات من واقع خارجية وداخلية محملة على أوعية إلكترونية وأقراص ضوئية. وإنطلاقا من مباشرة القارئ الفهرس المحسوب يختار مدونته الشخصية بالتحميل عن بعد، انطلاقا من الموزع serveur ثم يبنى مكتبته الشخصية بمساعدة أدوات عديدة للتكويد والترميز منها إبراز السطور Surlignage المطبوعة والتأشير على الهامش وضع العلامات وتحديد مسالك القراءة ووحداة التقطيع المنطقية وهى أدوات متناسقة يسهل تصميمها تبعا لدراسة معينة تمكن القارئ من معالجة مجموعة من الوثائق ضمن هذا الفضاء. وتتوجه البرمجيات الحالية لإرساء نظام ديناميكى لتسهيل عملية التمازج والتلاقح بين وظيفتى المبدع والمتلقى، لكى يستطيع القارئ عبر مطالعة تفاعلية من أن يصبح منجا للمعلومة بإنشاء ملفات خاصة به إثراء مدوناته.

---

(١) منذ القرن العاشر ميلادى بدأت إستعارة مفاهيم من الملاحة البحرية عند واضعى الكتب المرجعية والمصادر حين قاموا ببناء القواعد للولوج السهل للمعارف فى المعاجم القديمة ونذكر مصطلحات الإبحار عند ابن العباد (٩٣٨ ـ ٩٩٥ بعد الميلاد) الذى سمى معجمه المحيط والفيروز أبادى فى القرن الرابع عشر الذى صاغ القاموس الذى يعنى اصطلاحات البحر العضيم وأصبح فى عصرنا مصطلح مرادف للمعجم وما تشبيه المعاجم بالمحيطات إلا تعبير عن وعى عميق بضرورة إرساء معالم لكى لا نتوه فى مجالات المعانى والمعارف لما تزخر به من غنى وتنوع وقد كانت هذه الكتب المرجعية وما تزال حصونًا صانت اللغة العربية من الشتات، ونقلتها إلى الأجيال.

وهكذا لايمكن أن تقتصر هذه التأثيرات على كيفية استغلال الأدوات الحديثة وحدها بل تحدث تحولا عميقا فى صيرورة تلقى المعارف . ولنضرب مثلا ذلك المستخدم الذى يبحث عن معلومة معينة غير أنه فى نهاية الأمر ينتهى عند معلومات أخرى مختلفة تماما عن حاجات بحثه الأساسية .هذا الأنزياح يعود بنا لطرح المسألة الأساسية فى شغل أخصائى المعلومات : ما معنى البحث ؟ أهو العثور عن ما كنا نعرفه مسبقا أم أن نجد معلومات كنا نجهلها ؟ وبتساؤل أوضح هل الغاية هى العثور عن وثيقة نعرف مؤلفها أو عنوانها أو ناشرها أو نحن فى حاجة إلى وثيقة لانعرفها مسبقا ونحن فى حاجة إليها فى موضوع بحثنا وهكذا عندما نتوفق فى بحثنا نخرج بوثائق ومؤلفين من طى النسيان ونجد معلومات كنا نجهلها(١) .

وطبيعى أن نهتم بالحالة الثانية فالحالة الأولى أصبحت تقنياتها متطورة بفضل نظم الاسترجاع retrival Information التقليدية التى تشتغل منذ الستينات . وإذا كان البحث يتمثل فى التعمق لفهم موضوع معين يمثل التجوال فى رصيد المجموعات المعرفية الموجودة فى الرفوف المفتوحة فى المكتبات خير معين للمطالعة الحرة والخلاقة أو ما يقابلها باستغلال الإمكانات العريضة التى توفرها عمليات التزحلق Netsurfer فى شبكة الإنترنت.

ويتميز البحث فى هذه الحالة بشكله التلقائى الذى لا يخضع للتخطيط المركزى وتضاف لعمليات الاسترجاع الخطى وإجراءات التنقيب الاحتمالى Info - seek الذى تتعدد فيها الفرص وتكثر فيه المفاجأت وذلك لأن بيئة التنظيم الشبكى هى موسوعة تربط بين الاختصاصات العلمية أكثر من التفريق بينها وتربط بين مختلف العلامات والرموز فى نظم النصوص المترابطة أو الهايبرتاكس التى ظهرت منذ الأربعينيات(٢) وهى تربط المعلومات ذات العلاقة بنفس أسلوب العقل الإنسانى فى ربط ديناميكى للأشياء والأفكار أو الجزاء الوفيرة من المعلومات مع بعضها البعض وتخزن المعطيات النصية والسمعية البصرية فى نفس المكان.

بدأت شبكة الواب فى تحقيق تطلع النخب المثقفة لثقافة كونية دائمة فأصبحت أكبر موسوعة تتضمن الإرث والمخزون الحضارى العالمى (إعلام ، وأدب ، وتاريخ ، وعلوم ...) تتطور فى نفس الوقت مع الأحداث والمستجدات ، لكن هذه الموسوعة لم ينتجها أحد وليست هناك مسئولية عن تأليفها ونشرها فهى تتسم بالتلقائية والفوضوية لانعدام سرية المعلومات ومصداقيتها . إن ضياع المستخدمين عند الولوج فى شبكة الإنترنت وفقدانهم للإتجاهات الصحيحة وشكواهم المتتالية بعدم الوصول إلى إحتياجاتهم بدقة يدفعنا إلى التساؤل هل الشبكة العنكبوتية WWW الواب مصدر مرشد أم مصدر مضلل ؟

---

(١) Yannik Maigning-Ia bibliotheque virtuelle - in: Bulletin des bibliotheques de france (١٩٩٥), T٤٠, N" ٢,

(٢) أوديت مارون بدران وليلى عبد الواحد الفرحان النص المترابط. فى: المجلة العربية للمعلومات ٠- مج ١٨ ـ عدد ١ (١٩٧٧).- ص٧١-٧٩.

يتطلب التجوال فى دوائر العلوم والمعارف مؤهلات جديدة ودوافع لمضاعفة التركيز للتهيؤ للآنغماس باستعمال الأدوات الثلاثة الأبعاد الشبيهة بتلك التى تستخدم فى ألعاب الفيديو والتى تعطى الانطباع بالوجود داخل فضاءات ومحيطات جذابة مختلفة عن الواقع(١) . ويصبح التهيان هو المفروض فى البحث لما يثيره التشويش فى العديد من المواقع التجارية التى تستعمل تقنيات الدفع (Push) وتفرض نفسها فى كل استفسار وقواعد تسويقية وترويجية لخدمات تجارية لم تصمم لدعم خدمات المعلومات .

إن ممارسات الانغماس والغوص ، تتطلب أيضا وسائل كفيلة برسم طرق لعدم التيه ، ويفترض الإبحار وجود خرائط تمكن من تحديد الموقع الخاص لكل رائد Internaute ليبحث ويستكشف المواقع المجهولة . ولقد تدعمت استراتيجيات البحث حين برز عدد هام من البرمجيات تستخدم وظائف النص الفائق مثل Hypercard - Notecards تتلاءم مع ملامح المستفيد واحتياجاته ومعارفه مستوحاة من الخرائط والأدوات التى تحدد المسافات لتمكين المستفيد من تحديد موقعه ومساره.

إن الاندماج فى مجتمع المعلومات يفترض بيئة ثقافية تسعى إلى خلق عوامل الإبتكار والتجديد وتغيير المواقف لتصبح متبنية لحرية انسياب المعلومات. وهو ما يتطلب طرقا جديدة فى السلطة للتحكم وافدارة ، ووسائل جديدة للتواصل لدعم المساواة فى النفاذ إلى المعرفة . ولابد أن تتوفر هذه الظروف لكى تتحول الممارسات من التلقى السلبى إلى التفاعل الايجابى ثم تتحول الممارسات إلى التفتح الذهنى والإبداع .

- التخيل والإبداع

إن الواب والإنترنت بصفة عامة ليست مكتبة رقمية تتطلب إنشاؤها تنظيما محكما وترفيعا للمهارات التقليدية الفهرسة التصنيف والفرز ... ومهارات جديدة فى إعداد صفحات القبول وتذوق فنى عالى للمؤثرات السمعية البصرية وذهنية إبداعية.

إن الاستقطاب المفرض علينا والمتمثل فى القوة القاهرة التى ستنتج عن تقارب وسائل الإعلام والاتصالات عن بعد والمعلوماتيه المتمحورة الآن فى تسلط الإنترنت ، والتى ستؤدى دون المساهمات الحضارية المختلفة إلى تحطيم كل الثقافات وإلى تفكيك كل النظم المرجعية لجعل عالم المعلومات متجانسا تسوده ثقافة واحدة ولغة واحدة ، لايمكن مقابلته بالإسترخاء لذا علينا التخلص من العقلية

---

(١) وتستعمل آليات الإنغماس الخوذات والنظرات السمعية البصرية الشبيهة بتلك التى تستخدم فى ألعاب الفيديو أشباح Cline نماذج تحاكى صور المشارك تدخل شبهه فى القضاء الخيالى وتتكون هذه التجهيزات من العديد من الأدوات يطول تعدادها شاشات عريضة وروبوتات والخوذات الستيريوسكوبية Casque streoscopiques والقفازات الحساسة Gants sensitifs وعدسات الليزر الحدقية Lasers retiniens أو نظارات «غلاستورن».

الإستهلاكية وتنمية عقلية خلاقة تحاول استعمال شبكات المعلومات كأداة تواصل تمكن من عرض العديد من المعلومات الخاصة بنا والكشف عن مميزات بلادنا فى مختلف القطاعات . فهناك تحفظات تحذر من المنحنى الذى يتجه فوراً عند الحاجة إلى المعلومات إلى إستفسار الشبكات والمواقع الخارجية دون استثناء.. إن الأنبهار بمنجزات الغرب التكنولوجية والفكرية على حد سواء وتقليده ، يكرر عادات التبعية والاستهلاك السلبى المستفحلة فى مجتمعاتنا؛ إذ لابد من وضع حد للهيمنة وتقليص التبعية المعلوماتية التى تجعلنا نبحث فى الخارج عن معلومة توجد أصولها لدينا . لأن البلدان المتقدمة تتحصل بكل الوسائل على البيانات الخام لتعيدها إلى بلادنا وتصدرها فى شكل منتجات معلوماتية معلبة جاهزة للإستهلاك تستعملها دون عناء أو تحتفظ بها لوقت الحاجة للسيطرة والهيمنة عند احتدام الصراعات ، ليكون بذلك موطن الذكاء والخلق والإبداع .

كيف يمكن لاختصاصى المعلومات أن يكون مبدعا وخلاقا ؟ وماهى الأشكال المثلى لتوطين المكتبات الرقمية ؟

الجواب عن هذه المسائل يكمن فى اختزال التوجهات الحديثة . إن الاتجاه الحالى يخطو بمرافق المعلومات خطوة أخرى إلى الأمام، نحو تحرر المكتبى من المواد المطبوعة، ومن الخدمات التى تكتفى بالوصف البيبلوغرافى. ويسعى الاتجاه الحديث إلى بناء قواعد بيانات متكاملة، لا تكتفى بالتسجيلات البيبلوغرافية التى تحيل المستفيد إلى موارد المعلومات الأولية المختارة؛ من المقالات والتقارير والصحف والكتب بل تشتمل على العديد من أرصدة المعلومات التى توفر النص الكامل وتقدم بيانات إحصائية وأدلة وحقائق عملية حفظت فى صيغة رقمية. وهذه الأرصدة ليست محصورة فى شكل نصوص فحسب ، بل تتعداها إلى بقية الأشكال الأكثر جاذبية من المعطيات. ولا تكتفى بالنص بل تحتوى أيضا الصوت ، والصورة الثابتة والمتحركة وتعتمد العمليات التقنية (الفهرسة والتكشيف) على النص المترابط الذى يحيك نسيجا جديدا لأشكال متعددة تعتمد تفاعلاتها على نوافذ متركبة تفتح الواحدة على الأخرى ....

ولأن التمشى الحديث سائر نحو قواعد رقمية تتوحد فيها كل الإشارات من صوت وصورة ونص وأفلام، ويتطلب هذا من الموثق أن يتعرف ويتحكم فى مهارات ومؤهلات جديدة مثل: رسم وتصميم وإبداع فنى للوثيقة المتعددة العلامات. Infographie ويذكر تادنلسون[1] أن تقنيات التركيب والسيناريوهات

---

(١) الموثق الحديث عليه بالتحكم فى المواصفات الحديثة مثل مواصفة أس جى أم آل Generalized Markup Language SGML Standard وهى تنميط حسب طريقة عالمية لتحديد البنية المنطقية للوثائق ذات المحتويات المتعددة الرموز: الصوت والصور والرسوم والنصوص فى النصوص المترابطة وذلك لتسهيل تبادل المعلومات ومعرفة البرمجة بمواصفة Markup Language HTML Hypertext أو بلغة جافا ـ JAVA وغيرها وهى لغات برمجة تمكن من بناء صفحات القبول عبر شبكة الإنترنات.

السينماتوغرافية والألعاب الإلكترونية المعدة هى مجالات لإثراء الآلة الذاكرية الجديدة القادرة على بعث المعارف عند الطلب وعلى إعادة الربط بسهولة بين المصادر والموارد والكفاءات المشتته ولن يتسنى ذلك إلا بمقتضى قواعد لابد من وضعها بطريقة محددة وبمواصفات للوثائق يتوجب التحكم فيها لإدخال علامات الصوت فى نفس الوثيقة على شكل النص المترابط . فالمواقع التى لابد من تركيزها تقوم بإدخال إيقونات توضيحية تستعمل الصور والصوت فى شكل جذاب . وكل هذا يتطلب تنمية التذوق الفنى للاستخدام المبدع للتراث العالمى، الذى لايجب أن يمنع اللجوء إلى تراثنا والمزج بينهما لإعادة بناء الموزييك الرمزى فى صور لا نهائية تفاعلية متعددة العلامات والمسارات تمزج بين معالم حضارتنا من شعر ومقامات موسيقية والمعمار والزخرفة الإسلامية وروائع الفن العالمى ولا يعنى اللجوء للتراث أنه فن تقليدى، بل بالعكس ففنون عصر المعلومات الطلائعية تنقب دائما على المناهل الإبداعية فى موروث كل الحضارات.

يمكن أن تصبح هذه المواقع الموضوعة على الشبكات الإلكترونية، فضاءات فنية وأداة استراتيجية شاملة شديدة النجاعة فى التعريف بحصيلتنا الثقافية الموروثة والحديثة فضلا عن دوها فى تثمين المشاريع والخدمات الاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة .

إن أختصاصى المكتبات فى بيئة المعلومات الحالية لديه دور جوهرى فى مضاعفة القيمة المضافة وبالتالى مضاعفة ثورة أمته بإخصاب «رأس المال - المعلوماتى» تلك الثروة التى حلت محل رأس المال التقليدى . ونظم المعلومات تتعدى الاستعمالات التعليمية التى بدأت بالأنترنت كأداة لتفعيل عمليات الاتصال العلمى بين العلماء والمتعلمين حيث أصبحت أداة ضرورية لأصحاب القرار وأداة فعالة فى نمو المؤسسات والشركات الاقتصادية وتطورها .

والجدير بالملاحظة أنه على الرغم من اتجاه مرافق المعلومات ونظم بث المعلومات العلمية ، بفضل تدفق التبادلات المعلوماتية ، نحو إنتاجية أكبر للخلايا الأساسية المتمثلة فى كل رواد الشبكات دون إقصاء - أفراد وهيئات شباب أو كهول مهنيون أو هواة عصاميون - فإن الإستفادة من مرافق المعلومات غالبا ما تعكس ظلال المراحل المبكرة لتطور النشاط العلمى لفهم صيرورة البحث عن المعلومات ، حيث لم تتخذ إلى الآن شكل النشاط الاجتماعى المنظم . وذلك لقلة الدارسات التى تهتم بظواهر الاتصال التى تربط بين الباحث عن المعلومة والمطلع على المصادر والقارئ وبين المنتج للمعلومة .

٣ - الخاتمة

عندما تصبح العلاقات الإنسانية والسلوكات البشرية محور علوم وتقانات المعلومات، يسهل استخدام التقانات وتوطينها لأغراض تنموية مستديمة؛ لأن الإنسان يصبح قادراً بفضل سهولة ولوجه لنظم المعلومات أن يتقدم بفضل تفكيره بإنجازاته وأعماله خطوات لإنتاج الثروات المعرفية متبوعة حتما بالازدهار الثقافى لكل فرد ساهم فى تحقيقه ، يوفر الوقت له ، كما يعطى معنى ومغزى لأفعاله وأعماله . إن الاتجاه التقنوى الذى لا يتعدى اعتناؤه بمستجدات التقانات الحديثة للمعلومات حدود اعتماد الحلول السهلة المستوردة للتقانات ، هذا الاتجاه الذى تتسم به أغلب اللقاءات والأدبيات الحديثة لا يعبر إلا على مواقف تغريبية تقفز عن واقعنا . صحيح إن فى اقتناء التكنولوجيا الحديثة والتحكم فيها وتطويعها ، يكمن سلاح المستقبل لكن الأصح أن الحواسيب والتقانة وحدها غير كافية لتحقيق التقدم؛ لأن التطرق لموضوع التقانة دون حصر للمشاكل الاجتماعية والإنسانية التى يتخبط فيها أختصاصى المعلومات بمختلف فئاته ودون فهم لعلاقاته مع مستخدمى مرافق وخدماته يعتبر ضربا من ضروب الاستلاب والتهميش . وعلى عكس ذلك ، فإننا مدعوون إلى صياغة مقاربات جديدة تعتمد على فهم السلوكيات والممارسات والرؤى التى تمكننا من دخول العوالم الفرضية هذه المقاربات التى عليها أن توفق بين متطلبات المجتمع ومتطلبات نقل التقانة لابد أن تتميز بصفات ضرورية مثل القدرة الحادة للنقد ، والتفكير واليقظة. أما النقد فهو لرفض الاستلاب والسيطرة والتهميش ، وأما التفكير فهو لصياغة إضافات وتعديل الأطر المعرفية والمفاهيم لتنمية القدرة الذهنية لقوانا العاملة فى مرافق المعلومات للبحث عن دروب النجاح ، وأما اليقظة فهى حاجة ضرورية للاطلاع على كل المستجدات لتقييم وتمحيص البدائل التكنولوجية المتاحة ولاجتناب التردد والحيرة .